صور جديدة من الأدب العربي

في مجلس سيف الدولة

بين المتنبي وأبي فراس

« وأما أبو الطيب فلم يذكر معه شاعر الا ابو فراس وحده ، ولولا مكانه من السلطان لأخفاه » « ابن رشيق »

نشأ المتنبي من أصل وضيع ، فقد كان أبوه سقاء بالكوفة ، ولم يمنعه أصله الوضيع من أن يتطلع الى اسمى ما يتطلع اليه عظيم من مراتب السؤدد والرفعة ، فجد في طلب العلم صغيراً وانقطع عامين الى الأخذ عن اعراب البادية ، ثم اكثر من الاطلاع على الكتب والاستفادة من العلماء ، حتى اذا أخذ بحظه من العلم والادب تطلعت نفسه الى الاخذ بنصيبها من المجد واغتصاب الشهرة اغتصاباً من بين براثن الأسود . وكان يتقرب — في اول عهده — الى اعيان عصره وذوي النفوذ فيمدحهم بقصائده ، ليتخذهم سلماً الى ما تطمح اليه نفسه من المغانم. وربما أثابه بعض ممدوحيه على احدى قصائده بدينار واحد (١)

فلما اتصل بأبي العشائر — والي انطاكية — قدمه الى سيف الدولة فكان ذلك بدء شهرته الضخمة التي لا نرى أبلغ في وصفها من قول المتنبي نفسه — :

وتركك في الدنيا دوياً كأنما تداول سمع المرء أنمله العشر

فقد بلغ المتنبي حظاً من الشهرة لم يكد يظفر به شاعر عربي — قبله أو بعده — فملأ الدنيا وشغل الناس — كما يقول ابن رشيق — وعني بشرح ديوانه اكثر من اربعين اديباً منهم المعري وابن جني وهما من تعرف علماً وأدباً وفضلاً . وكان المتنبي قبل اتصاله بسيف الدولة — كما يقول الثعالبي — « يمدح القريب والغريب ويصطاد ما بين الكركي والعندليب »

وقد صحب سيف الدولة نحو عشر سنوات (٢) غمره فيها سيف الدولة بعطائه الجزيل ، كما افتن المتنبي في مدحه الذي خلده به بين ملوك عصره قاطبة ، وأنف المتنبي أن يمدح

---

(١) قالوا انه مدح علي بن منصور الحاجب فلم يعطه الا ديناراً واحداً على قصيدته التي اولها — :
« بأبي الشموس الجانحات غواربا » والتي منها قوله : أغنى الدنيا ، فلما جئته مستسقياً مطرت علي مصائبا

(٢) التحق به سنة ٣٣٧ هـ ثم فارقه ودخل مصر سنة ٣٤٦

— بعد ذلك — من هم دون الملوك مرتبة ومقاماً فترفع عن مدح المهلبي والصاحب[١] مع سمو منزلتيهما ، كما أنف أن يمدح غيرهما من الاعيان والامراء

وكان في المتنبي صلف وعجرفة واعتداد بالنفس الى اقصى حد ، فكثر اعداؤه وحاسدوه ، وكان كلما امعن في احتقارهم والزراية عليهم ، أمعنوا في الكيد له وتلمس العيوب والسقطات. وكان من أسباب تعاليه عن الناس واحتقاره اياهم أنهم طالما عيروه بضعة أصله[٢] وفاخروه بأحسابهم فتأصلت فيه طبيعة الاحتقار لهم والحقد عليهم[٣] ولعل ابلغ ما يمثل لنا هذه الطبيعة الحاقدة من شعره هو قوله — :

ومن عرف الايام معرفتي بها وبالناس روّى رمحه غير راحم

---

(١) وقد جلب على نفسه عداوة هذين الزعيمين باحجامه عن مدحهما وترفعه عنهما ، قالوا :

« ولما قدم ابو الطيب من مصر — الى بغداد وترفع عن مدح المهلبي الوزير ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك شق ذلك على المهلبي فأغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه وتباروا في هجائه واسمعوه ما يكره وتماجنوا به وتنادروا عليه . فلم يجبهم ولم يفكر فيهم ، وقيل له في ذلك فقال — :

اني فرغت من اجابتهم بقولي لمن هو أرفع منهم طبقة من الشعراء :

أرى المتشاعرين غروا بذمي ومن ذا يحمد الداء العضالا
ومن يك ذا فم مر مريض يجد مراً به الماء الزلالا

وقولي : أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني ، قصير يطاول
لساني بنطقي صامت عنه عادل وقلبي بصمتي ضاحك منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيبه وأغيظ من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طبي فيهم ، غير انني بغيض الى الجاهل المتعاقل

وقولي : واذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

قالوا : وقد ارسل اليه الصاحب — وقد طمع في زيارة المتنبي اياه باصبهان واجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان — وهو اذ ذاك شاب ولم يكن قد استوزر بعد وكتب اليه يلاطفه في استدعائه وتضمن له مشاطرته جميع ماله فلم يقم له المتنبي وزناً ولم يجبه على كتابه ولا الى مراده وقصد عضد الدولة

قالوا : فاتخذه الصاحب غرضاً يتنصل سيئاته وهو اعرف بحسناته.

(٢) وقد عيروه بذلك حتى بعد أن وصل الى ذروة الشهرة فمن ذلك قول بعض الشعراء :

اي فضل لشاعر يطلب الفضـ ـل من الناس بكرة وعشيا
عاش حيناً يبيع بالكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيا

على ان المتنبي كان يعترف بأن أصله وضيع وان فخاره بنفسه لا بآبائه وقد اشار الى ذلك عدة مرات نجتزئ منها بقوله في رثاء امه — :

ولو لم تكوني بنت اكرم والد لكان أباك الضخم كونك لي أما

وقد قلد فيه قول ابن الرومي في ابي الصقر — :

قالوا ابو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمري ، ولكن منه شيبان
كم من أب قد علا بابن ذرى شرف كما علت برسول الله عدنان

(٣) ملأ أبو العلاء المعري لزومياته بذم الناس ، ولكنه لم يحقد على أحد بل كان يتوخى الاصلاح وينشد المثل الأعلى ، ولا كذلك كان المتنبي ، فقد كان كثيراً ما يحقد عليهم دون ان يتوخى اصلاحهم .

فليس بمرحوم اذا ظفروا به   ولا في الردى الجاري عليهم بآثم[1]

ولقد كان المتنبي شديد الاثرة بعيد الانانية ، لا يشبه الا نفسهُ ، يرى كل من في الوجود مسخراً له وحده . فالملوك لم يخلقوا الا ليغمروه بجاههم ومالهم . والجماهير لم تخلق الا لتهتف له وتملأ الدنيا اعجاباً بشعره ، وعلماء عصره لم يوجدوا الا ليناقشوا اقواله ويفردوا له الشروح العديدة ، وشعراء العربية قاطبة لم ينظموا الا ليتخيّر من معانيهم الرائعة ما يحلو له أن ينظمه ويضعه في صيغته النهائية فكأنهم يرثون له « مشروعات قوانين » ليصدرها — بعد ذلك — للناس مراسيم

وهو في اكثر المعاني التي يسطو عليها — كما يقول الثعالبي — : « يأخذها عباءة ويردها ديباجاً ويرسلها مثلاً سائراً » . والحق أنك تقرأ شعر المتنبي فتحس كأن صوت القدر يملي على الناس قوانين الحياة املاء

***

أما أبو فراس فقد نشأ من طبقة الارستقراطية وبيت الملك — وهو على قرابته من سيف الدولة — شاعر فياض بالشاعرية واسلوبهُ — في اكثر شعره — في أعلى طبقات البلاغة وهو من أحبّ الشخصيات واظرفها ولشعره جمال رائع لعنايته بتخير اللفظ وحسن الاداء وصدق العاطفة . وقد حكم النقاد بتفوقه على ابن المعتز في الشعر ، وصدقوا في حكمهم كل الصدق ، فقد أقاد الاسرُ شاعرية ابي فراس وانطقهُ الالم بأروع وابدع ما يقوله شاعر مجيد[2]

قالوا : « وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته ولا يجترىء على مجاراته ، لكنه لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيباً له واجلالاً ، لا إغفالاً واخلالاً »

فأما أن المتنبي كان يشهد له بالتقدم والتبريز ويتحامى جانبه فلا ينبري لمباراته ولا يجترىء على مجاراته فيرجع الى قرابة ابي فراس من سيف الدولة وما عبره عداوته على المتنبي من النكبات . فقد كان سيف الدولة — كما يقولون — « يعجب جداً بمحاسن أبي فراس ويميزه بالاكرام على سائر قومه ، ويستصحبه في غزواته ويستخلفه في اعماله » . والمتنبي أحصف من أن ينبري لمباراة من هذا شأنه ، وأجدر أن يتحامى جانبه ويشهد له بالتقدم والتبريز

(١) ومن هذه القصيدة قوله — :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه   اذا اتسعت في الحلم طرق المظالم
وأن تردّ الماء الذي شطره دم   فتسقى ، اذا لم يسقَ من لم يزاحم

(٢) وقع ابو فراس في قبضة الروم اسيراً مدة اربع سنوات ، وقال في اسره أحسن ما قرأناه له من الشعر صدق عاطفة واحكام اسلوب ودقة اداء . وليس يتسع هذا المقام للاستشهاد بشيء من ذلك

وأما أن المتنبي « لم يمدح أبا فراس تهيباً واجلالاً » فهو كلام يجمل بنا أن نفهمه على وجهه الصحيح ، فهو بنفثة الساسة أشبه ، وماذا ينتظر معاصروه أن يعلل ترفعه عن مدح أبي فراس . وبمَ يجيبهم اذا سألوه : — « لمَ لم تمدح ابا فراس وقد مدحت من دونه من آل حمدان ؟ » . أكان يقول لهم : « إني لم أمدحه اغفالا واخلالا » أم يقول لهم : « إن شعره لم يعجبني » . أم يصارحهم برأيه الذي اضطر الى الافضاء به بعد ذلك — حين صرح الشر وانكشف الغطاء فقال : —

« أعيذها نظرات منك صادقة　　أن تحسب الشحم فيمن شحمه ورم »

ليس أمامه ما يزعمه إلا ان يقول إنه يتهيبه . ولو أن سائلا خبيثاً همس في أذنه : — « وكيف مدحت سيف الدولة اذن ؟ ألا تتهيبه أيضاً ؟ »

لما أجابه المتنبي حينئذ بأكثر من ابتسامة الهازىء العابث أو اعراضة المتخلص الهارب . وكيف نرضى بهذا التعليل الذي يقنع به الثعالبي وغيره ، ونحن نرى المتنبي قد مدح من اسرة حمدان من هم دون أبي فراس مقاماً كما مدح سيف الدولة وهو رأس الاسرة الحمدانية وأجدر بالتهيب والاجلال ان كان المتنبي ممن يتطرق الى نفسه تهيب أو اجلال لكائن من كان لقد كان ابو فراس شاعراً ، وشاعراً فحلا ممتازاً ، وحسبك بهذه الميزة سبباً ينفر المتنبي من مدحه . ولا ننس ان المتنبي كان يتطلع الى حمل لواء الزعامة الادبية في عصره ويرى ان ذلك أيسر ما يجدر به أن يفعله ، لأن نفسه الوثابة كانت تتوق الى ما هو اسمى من زعامة الشعر واعظم خطرا [(١)]

فكيف يشيد بذكر شاعر كأبي فراس يزاحمه في زعامة الشعر ؟ [(٢)]

الحق أن المتنبي وابا فراس لم يكن من سبيل الى التأليف بينهما ، فقد كان أبو فراس يرى في المتنبي رجلا من السوقة رفعه الشعر درجات فوق ما يستحق ، كما كان المتنبي يرى في أبي فراس أميراً ذكياً رفعت الامارة من شعره درجات فوق ما يستحق وأكسبته شهرة في الادب لم يكن ليصل اليها لولا قرابته ومكانته من سيف الدولة . فكان ينطبق عليهما قول

(١) كانت نفس المتنبي تطمح الى الملك أيضاً ، وقد أشار الى ذلك مرار عديدة منها بقوله مخاطباً كافور الاخشيدي — :

وغير كثير ان يزورك راجل　　فيرجع ملكا للعراقين واليا

فقد تهب الجيش الذي جاء غازيا　　لسائلك الفرد الذي جاء عافيا

(٢) ولقد كاد يجعله المتنبي نسياً منسياً من شعراء عصره المبرزين وليس أدل على ذلك من تصدي جمهرة كبيرة من الشارحين والناقدين والمادحين له حتى طبقت شهرته الآفاق وملأت الدنيا في حين لم يصل ابو فراس الى شيء يذكر من هذه الحظوة العجيبة

ابي الاصبع العدواني : — « خالني دونه ، بل خلته دوني »

فأبو فراس يرى فيه ابن سقاء مزهواً بشعره شامخاً بأنفه الى السماء متعالياً في غير جدارة ولا علاء بالغاً من سيف الدولة مكانة لم يبلغها سواه ، والمتنبي يرى فيه شاعراً ينافسه ويغار منه ويحسده على مكانته ويدني خصومه من مجلسه ، فبأي لسان يمدحه المتنبي؟ وكيف يهش له ابو فراس أو يصفيه الود خالصاً ؟

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد خلق المتنبي بسبب تعاليه وصلفه — كما أسلفنا — كثيراً من الحساد والخصوم وكان يزيد في حسدهم له ما يرونه من اقبال سيف الدولة عليه ، فلم يتوانوا عن الوقيعة والدس واتخذوا من إدلاله على سيف الدولة [1] مطعناً ينفذون منه اليه

فهذا أديب يكيد له عند سيف الدولة فيقول له — حين ينشده احدى قصائده وهو قاعد — : لو انشدها قائماً لأسمع ، فان اكثر الناس لا يسمعون » لينبه سيف الدولة الى سوء أدب المتنبي ، فيجيبه المتنبي على هذا الدس الخبيث يديهته الحاضرة الموفقة ، أما سمعت أولها : — « لكل امرىء من دهره ما تعودا » فيخرس حاسده بذلك [2]

وهذا شيخ يحسد المتنبي على عطاء أجزله له سيف الدولة حين قرأ قصيدته التي فيها قوله

يا أيها المحسن المشكور من جهتي والشكر من قبل الاحسان لا قبلي

فلا يطيق مغالبة حسده بل يظهره أمام سيف الدولة ؛ فيمنحه من العطاء ما يخفف به موجدته على المتنبي

وهذا ابن خالويه — مؤدب سيف الدولة وأحد شيوخ المدرسة القديمة في عصر المتنبي — لا يألو جهداً في تنقصه وثلبه ، فقد كانت عداوتهما مزدوجة ، فهي عداوة بين متنافسين وعداوة بين مدرستين كذلك . فقد كان ابن خالويه زعيم الجامدين في اللغة والاوضاع وكان المتنبي زعيماً من زعماء التجديد فيهما جميعاً . كان ابن خالويه يرى نفسه خادم اللغة الامين ، وكان المتنبي يرى نفسه سيدها والمتصرف فيها والمجدد في اساليبها وأوضاعها [3] . كان ابن خالويه يحني نفسه بالقياس وتتبع ما ورد عن العرب وما لم يرد ، حينما كان المتنبي مطلقاً نفسه من هذه القيود ، يختار منها ما يلائم ذوقه من الصيغ اللفظية والبيانية ، هازئاً بانصار الجمود من

---

(١) كان المتنبي كثيراً ما يتمدح نفسه في القصائد التي يمدح بها سيف الدولة فكان بذلك حساده وخصومه عليه (٢) قالوا : ان المتنبي انشد سيف الدولة قصيدته التي أولها « لكل امرىء من دهره ما تعودا » فلما عاد سيف الدولة الى داره واستعاده اياها أنشدها قاعداً ، فقال بعض الحاضرين — يريد أن يكيد أبا الطيب — : لو انشدها قائماً لأسمع ، فان اكثر الناس لا يسمعون ! فقال ابو الطيب — : أما سمعت أولها : « لكل امرىء من دهره ما تعودا ؟ »

(٣) كان المتنبي يتخذ ابن الرومي نموذجاً في التجديد والعبث بالالفاظ والمعاني

معاصريه واثقاً من سلامة ذوقه وصفاء طبعه، ينشدهم هذا البيت الذي يعرض نفسه أحسن تعبير:

أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وليست خصومة هؤلاء المقربين عند سيف الدولة للمتنبي بالخطب اليسير ، فقد تعورت السهام غرضاً إلا كانت حتى يهي ما اشتد من قوته . وقد شعر المتنبي بخطر حساده ومنافسيه وظهر ذلك في بعض قصائده ؛ ومن ذلك قوله لسيف الدولة : —

أزل حسد الحساد عني بكبتهم فأنت الذي صيرتهم لي حسدا

وقد انتهت هذه الدسائس كلها بالنتيجة الطبيعية ، فأحفظت سيف الدولة عليه ، وجعلته يعرض عنه — بعد اقبال — وانتهت هذه المؤامرات المتوالية بتعريب المتنبي ، ونفوره من سيف الدولة وسفره الى كافور ، هرباً من هذا الجو الموبوء بالدسائس والمكائد الخبيثة

ويظهر لنا أن أعداء المتنبي انفحوا في تنفير أبي فراس منه قبل ان يفلحوا في تنفير سيف الدولة ، وكان أبو فراس — كما اسلفنا — مستعداً لذلك . فلما امتلأت نفسه حقداً على المتنبي ، تولى الكيد له عند سيف الدولة الذي يحبه ولا يرد له قولا

قالوا: وكان أبو فراس يقول لسيف الدولة : « ان هذا المتسمي كثير الدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ، ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره[(١)] » . وثمة امتلأت نفس سيف الدولة بأمثال هذه الوشايات فأعرض عن المتنبي وظهر اعراضه واضحاً جلياً في ثلاث مناسبات: أولاها : حين عاد المتنبي اليه بعد ذلك — وكان غائباً . والثانية : حين أنشده قصيدته الرائية التي اوطاه واحر قلباه ممن قلبه شبم ؟ . والثالثة حين ناظره ابن خالويه في مجلسه

(١) — اعراضه الاول

قالوا إن المتنبي أبكه يلغه اعراضه وتعرف سره حتى دخل عليه وانشده قصيدته التي يقول

وما لي اذا ما اشتقت ابصرت دونه تنائف لا أشتاقها وسباسبا
وقد كان يدني مجلسي من سمائه أحادث فيها بدرها والكواكبا
حنانيك مسئولاً ، ولبيك داعياً وحسبي موهوباً وحسبك واهبا
أهذا جزاء الصدق : ان كنت صادقاً أهذا جزاء الكذب ان كنت كاذبا ؟
وان كان ذنبي كل ذنب ، فإنه محا الذنب كل المحو من جاء تائبا

قالوا : فأطرق سيف الدولة ولم ينظر اليه كعادته ، فخرج المتنبي من عنده متغيراً

[للكلام بقية] كامل كيلاني

(١) لعلك تلمح في هذه الجملة رأي أبي فراس في المتنبي ، وهو يؤيد ما ذكرناه من قبل